مشكلة الشباب

لحضرة صاحب السعادة محمد على علوبه باشا

" ... ألقيت هذه المحاضرة في قاعة بورت سعيد التذكارية بدعوة من وزارة الشؤون الاجتماعية منتصف ليلة الثلاثين من شهر مارس في عام ١٩٣٧ .

وقد رأيت أن أنشر مشكلة الشباب براحة وأدلي فيها بمقترحات عملية لها قيمتها " .

المحرر

لقد درس قسم الخدمة العامة بجامعة كولومبيا الأمريكية تحت رعاية وزارة الشؤون الاجتماعية — وحسبه بذلك أن شرف الحفلة صديق حضرة صاحب المعالي وزير الوزراء — لأليق على حضرتكم شيئاً من إحدى المشاكل التي تحتاج إلى تذليل صعابها وتعبيد سبلها حتى تسير إلى حيث تريد قدماً لا تميل ولا تعثر .

ولعل كلٍّ منكم تعترضه في حياته الاجتماعية كثيرة متنوعة ، منها : مشكلة الموظف ، مشكلة الأسرة ، مشكلة المنزل ، مشكلة الشباب ، مشكلة العامل ، مشكلة الفلاح .

وقد درس قسم خدمة الجامعة من يحلون هذه المشاكل ويصفون لها الدواء الناجع المفيد ، ولكن تختص بمشكلة المشكلات ، وهي مشكلة الشباب .

قد تقولون إن مشاكل حياتنا الاجتماعية كثيرة ، نعم ، ولا أخفي على حضرتكم أن السبب الأساسي في جميع المشكلات الاجتماعية مرجعه مشكلة الحالة الاقتصادية .

فالفقر مشكلة اجتماعية ، أساسها رديء الحالة الاقتصادية . والجهل مشكلة اجتماعية هي أيضاً سيئة الحالة الاقتصادية . وكذلك كل من المرض والخلع والتشرد والتسول والإجرام وغيرها من أمراض المجتمع .

وإني قد تحدثت إليكم عن مشكلة المشاكل وهي مشكلة الشباب ، وأتناولها بالبحث والتحليل ، سائلاً نفسي : هذا الشاب أمهى دراسته الجامعية ، أو دراسته التي تؤهله لأن يكون في هذا المعترك العالمي " مدد عددنا لهذا الشاب من حيث يستطيع فيه جهوده ونشاطه وشبابه . وماذا رسمنا له من نهج حتى يكون لبنة من لبنات هذا الصرح العالي ، الذي نبني به الوطن ، ونشيد دعائمه وعظمته .

كانت آمال الشباب في الماضي تتجه إلى أن يعيش بين ظلال الوظيفة ، ناعم البال ، قرير العين ، ولكن وظائف الحكومة أكتظت بمن فيها ، وصارت عبئاً ثقيلاً على عاتق

الشعب وولاة الأمور، وقد أعلنت الحكومة من زمن طويل أنها لا تعلم الشباب لكي يكون موظفا ، بل تعده ليكافح في الحياة بما استفاد من علم ودراسات ونظم .

فيسألنا الشاب : ولكن أبواب الحياة موصدة . وآفاق العمل ضيقة محدودة . فأين أستثمر جهودي ؟ وأين أروض نفسي على العمل ؟

الحق أننا نرى في مصر شيئا عجبا . نرى موارد ثروتنا في بلادنا قد ضاقت فلم تتسع لهذا العدد من الشبان المتعلمين ، فأصبحوا متعطلين ، ولما تزد نسبة المتعلمين في مصر على ١٥ في المائة من سكان القطر ، فكيف تكون بلادنا الحال اذا نمت هذه النسبة وارتفعت . وحل من المصلحة أن تفتح أبواب العلم للشباب ينهل من مناهله ، ويغترف من فيضه ، وفي هذا نشر لنور العلم والعرفان . أم من المصلحة أن نمشي في أمر التعليم مشيا وئيدا حتى لا تثقل كاهل الأمة بالبذل والانفاق ، ولا يزيد عدد المتعطلين وعدد العاضبين ، وعدد اليائسين ؟

هذه حلقة مفرغة فالواجب الإنساني يقضي بنشر التعليم بين الأمة . ولكن الواجب القومي يقضي بعدم خلق المتعطلين المتذمرين . وعدم بذل أموال الأمة فيما لا يجدي ولا ينفع .

إنه لا خلاص من هذه الأزمة الاجتماعية إلا بحل الأزمة الاقتصادية ، فتتسع موارد البلد وتزيد خيراته . وكيف السبيل الى هذا ونحن نشهد حياتنا اقتصادية مريرة موجعة ؟

إننا أمة كبيرة العدد كثيرة النسل ، فقد كان عدد السكان في سنة ١٨٠٠ أقل من مليونين ونصف مليون من النفوس وقد وصلوا الآن في أقل من قرن ونصف الى ما يقرب من سبعة عشر مليونا ، وتلك وثبة تخشى أن تؤدي في سرب العاجل الى كارثة كبرى ان لم نتداركها بحكمة وجهد وسداد .

يرى بعض رجال العلم أن بلدا هذا شأنه لا تزيد مساحة أراضي الزراعية فيه والقابلة للزراعة عن ٣,٥٠٠,٠٠٠ كيلو متر مربع لا تزيد إلا قليلا لا يمكنه أن يغذي غذاء صحيحا أكثر من اثني عشر مليونا من الأنفس .

واذا شئنا أن نأخذ بهذا الرأي علاجا لما نحن فيه من أزمة اقتصادية ، كان لا بد لنا من تقليل عدد السكان وتحديد النسل بإصدار قوانين تدعو إلى عدم تيسير الزواج وإلى تعقيم الأزواج حتى لا يصل نسلهم إلى عدد كبير ، وهذه فكرة حائطة لا تتفق مع عاداتنا وتقاليدنا ولا نرضى بها كأمة حية فتية تريد أن تتبوأ مقعد الصدق بين الأمم .

ولا حياة لأمة لم تتخذ للحياة عدتها ، وعدة الحياة نسل قوي زاخر . وجيش فتي باسل ، إن الأمم النامية تسعى سعيا حثيثا إلى زيادة نسلها لا إلى تقليله ، وتشجع من يتزايد نسلهم بالمكافآت السخية وإن دعا بعضها إلى تعقيم الأزواج ، فذلك للمرضى والمعتوهين وبعض معتادي الإجرام ، حتى يكون النسل سليما معافى !!

ولا بد لهذا الحال من علاج لحاسم بديد . وإن من الأسباب الرئيسية لأزمتنا الحاضرة أننا لا نزال كما كنا فى القرون الوسطى نكاد نعيش على الزراعة وحدها ، مؤمنين بهذا المبدأ الذى نادى به " الفيزيوقراطيون " فى القرن الثانى عشر من أن الزراعة هى مصدر الثروة ولكن القرن التاسع عشر قد قلب الأوضاع بازدهار الصناعة والتجارة وتنوع الأعمال الحرة الأخرى . فغير من مظاهر العيش وبدل ، فتغيرت الحياة الاجتماعية تبعا للحياة الاقتصادية . وأصبحت الأمم الفقيرة غنية بفضل تجارتها وصناعتها وأصبحنا نرى الأمم الزراعية المحضة أفقر الأمم جميعا وأضعفها فى ميدان التنافس العالمى .

إن هذا التنافس العالمى حدا بالأمم الزراعية إلى أن تولى الصناعة والتجارة عناية خاصة حتى تعيش فى هذا المعترك العالمى . فلم لا نجارى هذه الأمم فيما أخذت به ؟

إن الحرب الماضية قد أحيت فى بلادنا بعض الصناعات والتجارات الوطنية ، ولدينا الآن نحو مليون من المصريين يعيشون على الصناعات المتعددة ، ولكنى أعتقد وقد أتت الحرب الحاضرة بالنذر ، أننا فى حاجة إلى جهود جبارة حتى نصل إلى تغيير حالتنا الزراعية المحضة ونشر الصناعة والتجارة بين ظهرانينا بوسيلة فعالة مجدية ، حتى تصبح ثروتنا فى نمو وازدهار بفضل ارتكازها على دعائم الزراعة والصناعة والتجارة .

فما الوسيلة إلى ازدهار الصناعة والتجارة فى بلادنا ؟

أمامنا أمثلة حية لبعض الأمم النابضة ، فقد وضعت نظاما أساسه أن الأمم الناشئة هى كالفاصر المميز فى حاجة إلى من يرشده ويعينه ، أو هى كالطائر الصغير فى حاجة إلى من يرعاه حتى يطير بأجنحته ويكافح بوسائله . فعمدت الحكومات إلى النهوض بشعوبها على هذا الوضع الطبيعى رغم أن ليس لدى بعضها القدر الكافى من المواد الأولية كالفحم والحديد والقطن والمطاط والبترول وساهمت فى إيجاد المصانع تديرها الحكومة ويشرف عليها رجال تنتقيهم ، وتفتح المدارس الصناعية الخاصة بهذه المصانع حتى اذا تخرج طلبة الحقوا بها ، واذا تم العدد الكافى من الموظفين الفنيين والإداريين الخبيرين تحمل أعباء المسئولية نفضت الحكومة يدها من هذه المصانع ببيع أسهمها لشركة من المواطنين يمكون المصنع وهم أكفاء لإدارته جديرون برفع شأنه .

وبعبارة أخرى تقوم الحكومات الرشيدة - لا بتأييد مذهب الفردية المتطرف ، ولا مذهب الاشتراكية على اطلاقه ، وانما بدراسة صناعة أو صناعات خاصة ، ثم تشترك مع بعض الأهلين فى رأس مال هذا المصنع ، وفى أرباحه على أن يكون لها شىء كثير من رأس المال ، وقوة فى الإشراف ، فإذا ما قامت الصناعة وازدهرت تخت عنها وباعت أنصبتها للمواطنين ومثل ذلك يقال [illegible] رة .

وفوق ماسبق فإن هذه الحكومات لاتقيم صناعة إلا اذا توافرت أكثر موادها الأولية فى موطنها أو أمكنها أن تزاحم غيرها بعلومها وفنونها وابتكاراتها وحسن ادارتها .

فمثلا فى مصر صناعات كثيرة يمكن إيجادها للمنتجات الزراعية بأنواعها الكثيرة، وفى مصر مواد أولية كثيرة للصناعات الكيميائية والأدوية الطبية وأدوات البناء وهندسته، وفى مصر مواد أولية لصناعات القطن والزيوت والروائح العطرية والزجاج والجلود والبترول، والحديد ومعادن أخرى ، وفى مصر يمكن إيجاد مخصبات زراعية ، ففيها الفسفات ويمكن صنع النترات . وهناك صناعات وتجارات لا تحتاج لمواد أولية، وانما أساسها الاستعداد والتفكير السليم بجلب السياح صيفا وشتاء، وإنشاء الفنادق والمطاعم والمقاهى وادارتها على أكمل وجه وغير ذلك مما يطول شرحه .

ان واجب الحكومات أن تسعى فى إيجاد الصناعات التى يصعب على غيرنا أن ينافسنا فيها ، وأن تكون الحماية الجمركية واجبة عند البدء فى انشاء هذه الصناعات المتنوعة ، إلى أن تترعرع ويشتد ساعدها، وتكون فى غنى عن تلك الحماية حتى لاترهق المستهلكين من الأهلين.

تلك هى الوسائل التى عمدت هذه الأمم التى فكرت فى مستقبل أبنائها : درس للمشروعات الصناعية والتجارية، وتنفيذها باشتراك الحكومات نفسها ورشادها . واختيار المواد الأولية التى تفدى صروب الصناعة والتجارة، ثم حماية جمركية مؤقتة الى أن تزدهر الصناعة وتستمر وقد عمدت بعض الأمم لحرمانها من الحديد الى شراء الحديد الخردة من أسواق العالم وبفضل علمها وفنها أمكنها أن تكون أية صناعة، ولاشك أننا إذا سرنا على هذا المنهج بضع سنوات وتعاونت الحكومة والشعب فى تحقيق هذه الغاية بأمانة ونشاط واخلاص ، لازدهرت الصناعة والتجارة ، وزاد رأس مال هذه الأمة وعاش أبناؤنا وأحفادنا من بعدنا فى بحبوحة من العيش رغم ضيق رقعتنا الزراعية ودون حاجة الى ما يسمونه تقليل النسل أو تعقيم السكان ، وبهذه المناسبة يحزنى أن أرى ، وقد سدت أمام وجوهنا ينابيع الثروة الحقيقية — بعضا من الشبان يتعلمون الهندسة والصناعة أو التجارة أو الفنون ، حتى إذا أتموا دراستهم لم يجدوا لهم عملا . وإذا ساعدهم الحظ ألحقوا بأعمال لاتمت الى كفايتهم واستعدادهم فيموت فيهم النبوغ وتخبو عوامل اليقظة والنشاط .

إن على الحكومات أن تفكر فى مصير هذا الشعب وأن تحفظ كيانه ، وأن تعمل على النهوض به فى جميع مرافق الحياة ، وأن تتجه فى إدارة الحكم وجهة قومية بعيدة عن التناحر الحزبى وتنافر الأهوى والغايات .

نريد حياة قومية وطنية مستقرة، نريد برامج ثابتة تنفذها الحكومات المتعاقبة دون تقاعس أو توان، وكم يحز فى نفسى أن أذكر لكم ما أصابنا من تعطيل فى مشاريعنا الحيوية الهامة، بفضل هذا التناحر الذى نئن تحت أثقاله .

حدوا مثال صناعة الفخار وهي التي كان يجب أن تنشأ في بلادنا من سنوات طويلة، بفضل مناقط لحران أسوان، وكان يمكن لو تم هذا المشروع أن نوجد كثيرا من المهندسين والفنيين ينصرفون إلى خدمة بلادهم وأنفسهم وأن يقدموا لنا هذا الصناعة الذي نحن في أشد الحاجة إليه في الوقت الحاضر، ونأخذه فوق ذلك بأثمان رخيصة لا تتناسب بينها وبين الأثمان الفادحة التي ندفعها في أيام الحرب وفي أيام السلم. ونساعد على تخصيب أرضنا وزيادة محصولها لزراعي وطمأنينة أهلها. ولكن شاء تناحرنا أن عطل هذا العمل الجليل. تركي حكومة تتقدم على إبرازه إلى حيز الوجود يتقولون عليها في شرفها وكرامتها، ويتهمونها بأن لها ضلعا مع المقاولين أو الشركات المختلفة حتى ظننت كل وزارة أنها تصير هدفا لمطاعن الطاعنين إذا هي أقدمت على بعث هذا المشروع خيفة أن تتهم في شرفها ونزاهتها إلى أن أتت الحرب وسدت أمامنا السبل ولا يعلم إلا الله متى يتم هذا المشروع وغيره من المشاريع الحيوية.

وبهذه المناسبة أذكر أننا أقدمنا على مشروع واحد هو إيجاد كورنيش البحر بالاسكندرية من رأس التين الى سراي المنتزه، وقد كانت شوارع رمل الاسكندرية تشبه أزقة القرى بأحياء هذا الكورنيش كما أحيا مدينة الاسكندرية نفسها وارتفعت أسعار الأراضي المجاورة له الى عشرة أمثالها أو يزيد، وصارت الاسكندرية بفضل هذا الكورنيش عروس البحر الأبيض المتوسط، ولكن سمعنا بكل أسف أن هناك مطاعن وقضايا في ذمم من قاموا بهذا العمل الجليل.

وإذا تكلمنا عن الشركات والمشاريع الحيوية، فإني أرجو أن تكون هذه الشركات وطنية اسما وفعلا. فلا يرضينا أن يكون حظنا في الشركات مقصورا على العمال والخادمين وخدم، وأن يكون لنا فوق ذلك ما يسمونه عضوية في مجالس إدارة الشركات. إنما الذي نبغيه ونتمنيه أن تكون الأموال مصرية وأن يكون المديرون مصريين. وأن يكون أرباب الفن مصريين، وأن تكون الادارة الفعلية في أيد مصرية حتى نعتقد بحق أن لنا شركات مصرية وأن لنا جهودا طيبة في هذا المضمار الحيوي الفسيح.

* * *

أحس أني أسرفت في واجبات الحكومة، فما هو واجب الشباب، أرى وجوب التضامن في الواجبات، وكما أن على الحكومة واجب التعليم الفني والإرشاد والمساعدة كذلك واجب على الشباب أن يحس بالمسئولية الملقاة على عاتقه، وأن يعتقد أنه هو الوطن. وأنه مستقبل الوطن وأنه شرف الوطن.

يجب أن يكون الشاب أهلا لتحمل أعباء المستقبل . فيباعد نفسه عن المهلكات الجسمية والأدبية . وأن يسمو بخلقه وعلمه ونشاطه الى المستوى الذى يجعله فى مصاف شباب الأمم الراقية . وألا يضيع من وقته ما لا يجدى فيه شخصه أو قومه .

على الشباب أن يساهموا فى مضمار الصناعة والتجارة فى الأعمال الحرة دون أن يتوانبوا على وظائف الحكومة ، فتخمد فيهم جذوة النشاط والابتكار . عليهم أن يعلموا أن هناك ميادين فسيحة للحياة الشريفة والرغد العيش تتطلب شيئا من الثقة والنشاط وحسن الاستعداد ، وليعلم أولئك المتواكلون أن سيد الخلق كان تاجرا قبل رسالته وأن أبا بكر الصديق زاول التجارة أيام خلافته ليعيش دون أن يمس بيت مال المسلمين . فتخذوا أيها الشباب من هذين القدوة الصالحة .

على الشباب أن يتساعدوا ويتساندوا فيكونوا الكتلة القوية والحياة الباسمة لهذه الأمة وسندها وملاذها بالأعمال الجريئة الحرة المجدية ، واعلموا أن النقاء فى هذا العالم لا يصح فكونوا أيها الشباب يدا لهذه الأمة وحماتها وارتفعوا بأنفسكم يرتفع الكل نهوضا وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) .

محمد على علوبة